نظرة حول التواجد الفينيقي في شمال إفريقيا
خلال الألف الأول ق.م
(آثاره ونتائجه)

د. محمد خير أورفه لي

جامعة الجزائر

تعرض غربي البحر المتوسط ومن ضمنه سواحل شمال إفريقيا خلال أواخر الألف الأول ق.م لحركة تجارية هامة كانت من قبل الفينيقيين. هاته الحركة أعطت شمال إفريقيا فرصة الإحتكاك في حضارات الشرق القديم المتواجد في الحوض الشرقي من المتوسط. وكان من نتائجها زرع عدد كبير من المحطات التجارية الساحلية التي كانت نواة لمعظم المدن الساحلية والتي مازالت تعيش وتزدهر حتى يومنا هذا، واحتكاك كبير بين الحضارات المشرقية والمغربية.

الفينيقيون وطنهم الأصلي وظروف تواجدهم :

يعود أصل الفينيقيين الغربيين إلى الساحل السوري حاليا، موطنهم الأصلي. حيث كانوا يتوزعون على طول الساحل من أوجاريت (رأس شمرا) شمالا حتى غزة جنوبا. متوطنين في عدد من المدن أهمها : أرواد، جبيل، صيدا، وصور. بينما ينتمون في أصولهم إلى المجموعة الغربية من الجنس السامي. وكانوا يدعون أنفسهم بالكنعانيين (1). أما كلمة فينيقي (2) فإنها لم تظهر إلاّ في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م ومدلولها بشري أكثر من كونه مدلولا سياسيا. فهي تشمل جميع الفينيقيين سواء القاطنين منهم على الساحل السوري أو المستعمرات التجارية والمستوطنات المنتشرة علىّ سواحل المتوسط.

وكانت المنطقة السورية ميدان وصراع بين القوى الكبرى المجاورة مثل مصر وبلاد الرافدين والحثيين والإيجيين والفرس، فأثرت كثيرا على شخصية الكنعانيين وطبعت حضارتهم بشخصية ممتزجة من الحضارات المجاورة. وقد خضعت المنطقة للنفوذ المصري خلال الألف الثاني ق.م. ولدول الرافدين والفرس خلال الألف الأول ق.م.

وكان لتعرض المنطقة للغزوة الكبرى لشعوب البحر خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م أثر كبير على تاريخ المنطقة. فقد أدت إلى سقوط وضعف القوى الكبرى في منطقة آسيا الغربية، وربما خلفت بامتزاج شعوب البحر مع الكنعانيين عنصرا جديدا تميز بالمخاطرة وحب البحر وتعاطي التجارة.

حركة التوسع التجاري في غربي البحر المتوسط :

من أهم الأحداث الكبرى التي تميز بها التاريخ الفينيقي هي هاته الحركة التوسعية الكبرى التي قام بها الفنيقيون في الفترة الواقعة مابين القرنين الثاني عشر والثامن ق.م في حوض البحر المتوسط، والتي كانت التجارة هدفها الأساسي. وقد بلغت المدن الفينيقية خلالها أوج ازدهارها، وخاصة مدينة صور. فقد كانت آنذاك رائدة المدن الفينيقية لفترة طويلة من الزمن (3). وقد تميزت هاته الحركة بإقامة المحطات التجارية والمستوطنات على سواحل حوض المتوسط، والتي أصبحت أسواقا ترسو فيها السفن وتأخذ منها مؤونتها، ويتقابل فيها التجار فيبيعون ويبتاعون فيها. وقد أصبح الفينيقيون في أوائل الألف الأول ق.م. مسيطرين على التجارة. فكانوا العملاء في توزيع البضائع في الشرق والغرب. والوسطاء في نشر حضارتهم وحضارات جيرانهم. مما جعلهم أمة مسالمة تصل لغايتها التجارية بالدبلوماسية وعلاقات الصداقة. وبذلك غدت محطاتهم مراكز اشعاع وامتزاج لحضارات عالم البحر المتوسط.

بدأ الفنيقيون مستوطناتهم على سواحل الحوض الشرقي للمتوسط منذ الألف الثاني ق.م فقد مدوا سيادتهم على جزيرة قبرص منذ وقت مبكر وأسسوا فيها مدنا عديدة أهمها كيتيون. وكان لهم معاملات وأسواق تجارية نحو سواحل الحوض الغربي للمتوسط، في صقلية وسردينيا وشمال إفريقيا وإسبانيا. هذا ويصعب التعرف على الكيفيات الأولى لهاته العلاقات. فيظهر أنّ الفينيقيين أقاموا علاقات طيبة مع السكان المحليين لهاته المناطق والذين كانوا الطرف الآخر في هاته المعاملات التجارية. فلا نسمع خلال هاته الفترة عن أي إشارة للصدام أو المقاومة بين الطرفين.

يعتبر التاريخ التقليدي للمؤرخين الكلاسيكيين مدينتي قادس في اسبانيا وليكسوس في المغرب أنهما أقدم المستعمرات التي أسسها الفينيقيون (1110 ق.م)، وبعدها بقليل أوتيكا في تونس (1101 ق.م). فيلاحظ سترابون Strabon أنّ الفنيقيين

استقروا عند قادس Gades بوقت قصير بعد حرب طروادة (4). وعلى كل يمكن القول بأنّ التواجد الفينيقي في المغرب قد بدأ اعتبارا من نهاية القرن 12 ق.م. هذا ويظهر أنّ الدافع الرئيسي لإختراق الفينيقيين للحوض الغربي من المتوسط كان بسبب التجارة الرابحة وخاصة مع تارشيش Tarshish في اسبانيا من معادن الفضة والنحاس والقصدير. فالكتاب المقدس يتكلم لنا عن هاته الرحلات التي كانت تتجه نحو تارشيش والتي كانت تدوم مدة ثلاث سنوات (5).

أما استقرارهم في جزيرة صقلية فيظهر أنّ أهميتها لم تلفت انتباههم إلا عند بدء تواجد ومنافسة الإغريق لهم اعتبارا من القرن 7 ق.م ولهذا وطد الفنيقيون مستوطناتهم الموجودة في غرب الجزيرة. وكان أهمها بانورموس Panormus وموتيا Motya وسوتوس Sotus. كما أنهم سيطروا على جزيرة سردينيا وأقاموا فيها مستوطنات مثل تاروس Tharros وسولكيس Sulcis. ويظهر أن استعمارهم لهاته الجزر كان بعامل حماية طريق تجارتهم إلى أقصى الغرب وخاصة من الإغريق منافسهم الأكبر في حوض المتوسط.

الإستيطان في شمال افريقيا :

من أين دخل الفينيقيون لمنطقة شمال افريقيا ؟ إننا نجهل ذلك. وإن كان المنطق يرجح مجيئهم من جهة صقلية. كما نلاحظ أنّ هذا الإستيطان قد سجل دخول المنطقة في العصور التاريخية (6). فحسب التاريخ التقليدي يظهر أن المستوطنات الفينيقية قد تواجدت في نفس الوقت الذي تواجدت فيه على الساحل الإسباني، ونعرف منها أوتيكا وليكسوس وهادرومت ولبتس والمدينتان اللتان عرفتا خلال العصر الروماني بهيبو ريجيوس Hippo Regius (عنابة) وهيبو ديارهيتوس Diarrhytus Hippo (بنزرت). وكانت قرطاجة (كارت حدشت) تاج المستوطنات الفنيقية في الغرب. فيروي لنا بلين الأكبر Plinus حول ليكسوس بأنها "... كانت حسب الأقدمين مكان الأساطير الخيالية ... فقصر أنتي Antée (العملاق) قد تواجد فيها، حيث دارت هناك معركة هرقل الشهيرة، وتواجدت فيها أيضا جنة الهسبريات (هؤلاء الحوريات اللاتي لديهن التفاح الذهبي)..."(7). وحسب بلين الأكبر فإن أوتيكا تكون قد أسست عام 1101 ق.م (8).

- وقد جرى الحديث كثيرا حول طريقة التعامل مع السكان بالطريقة الخرساء التي رواها لنا هيرودوت (9)، والتي كان يتم على أساسها التبادل التجاري من قبل القرطاجيين مع السكان فيما وراء أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق حاليا) خلال القرن 5 ق.م. فمن الممكن جدا أن هاته الطريقة نفسها كانت مستعملة من قبل الفينيقيين خلال الفترة الأولى من تواجدهم. على كل لدينا أيضا رحلة حانون التي جرت خلال القرن 5 ق.م.، فرغم أنها متأخرة فهي توضح لنا إلى حد ما طريقة زرع المحطات التجارية والمستوطنات (10).

يظهر أن هذا التوسع الإستيطاني قد تحول إلى هجرة كبرى خلال أواخر القرن 9 ق.م وكان من أهم نتائجها تأسيس مدينة قرطاجة (كارت حدشت). وقد دفعهم إليها على الأكثر عدم الإستقرار في بلادهم من جراء توالي الغزو الآشوري والكلداني على الساحل الفينيقي منذ القرن التاسع ق.م. بينما تشير الأساطير إلى أن إنشاء قرطاجة قام على يد إمرأة تدعوها بعض الأساطير "عليسا" والبعض الآخر "ديدون"، والتي هربت من أخيها بيغماليون الذي قتل زوجها "استرياس" واغتصب الملك في مدينة صور (11).

تعتبر الفترة السابقة للقرن 8 ق.م بالنسبة للمستوطنات الفينيقية في المغرب فترة غموض نظرا لقلة معلوماتنا عنها. ويزيد البحث صعوبة أن الآثار المكتشفة فيها حديثا لم تنسجم دائما مع معطيات الروايات التاريخية. هذا وأغلب الظن أن المستوطنات الغربية الأولى كانت تابعة لمدنها الأم وخاصة منها صور رائدة هذه الحركة الإستيطانية الكبرى. ويذكر ديودور الصقلي وجود بعثة سنوية تحمل الهدايا الثمينة إلى معبد ملكارت في صور والتي تقدر بعشر مداخيل المدينة. مما يدل على أنّ قرطاجة قد استمرت في الإعتراف بتبعيتها الروحية لها حتى زمن ضعف هاته الأخيرة وسقوطها تحت الحكم الفارسي في القرن الخامس ق.م (12).

كانت المستوطنات والمحطات التجارية تقام إما على جزيرة شاطئية أو على رأس بحري، يمكن أن يؤمن الملجأ عندما يتوفر لهاته السفن بواسطة خليج عميق أو مصب نهر هادئ صالح للملاحة. والملاحة الممارسة لديهم كانت من نوع الملاحة الشاطئية التي تتمثل في مسيرة السفينة نهارا ومباتها ليلا على الشاطئ. ولتأمين هاته الملاحة الشاطئية فإننا نجد أنّ المسافة بين هاته المحطات التجارية كانت تعادل مسيرة يوم واحد

في البحر أي مابين 30 ـ 50 كم. فالملاحة البحرية للسفينة في ذلك الوقت لاتستطيع تجاوز هاته المسافة(13). ولهذا لو تفحصنا انتشار المحطات التجارية على ساحل شمال افريقيا لوجدنا أن هاته المسافة محترمة إلى حد كبير (أنظر الخريطة). ومايلاحظ من تحليل الأسماء لهاته المحطات والمستوطنات بأن فيها مايبدأ بالمقطع "روس"، وتعني بالفينيقية الرأس مثل روسبينا (موناستير)، روسيكاد (سكيكدة)، روسازوس (أزفون)، روسوكورو (دلس)، روس غونيا (تامنفوست)، روسادير (مليلة). ومنها مايبدأ بالمقطع "إي" وتعني الجزيرة مثل إيجيلجيلي (جيجل)، ايكوزيم (الجزائر)، ايول (شرشال)..

فلايأتي القرن 6 ق.م إلا ونرى الساحل مرصعا بهاته المستوطنات، والذي تطور معظمها إلى مدن. وأصبحت قرطاجة أقوى هاته المدن حيث أنها تتطور وتتحول إلى امبراطورية بعد فترة قصيرة من الزمن. ويظهر أن معظم المستوطنات والمدن تدخل تحت قيادتها أو على الأقل تحت حمايتها. حيث دخلت هذه فيما بعد حروبا طاحنة مع إغريقيي صقلية ثم الرومان فيما بعد، كانت سببا في انهاك قوتها والقضاء عليها أخيرا وذلك في تهديمها من قبل الرومان عام 146 ق.م.

وأهم مانلاحظه هنا أن المكتشفات الأثرية التي وجدت فيها حتي الآن لاتعطي دائما أقدميتها المروية عن المصادر الكتابية. فبالنسبة لأوتيكا فإن أقدم قبورها لم يتعد القرن 8 ق.م (14). بينما قرطاجة فقد أعطت الحفريات الأخيرة على الساحل فيها، شمال معبد توفيت سالمبو، مستويات من القرن 8 ق.م. وهذا مايتوافق إلى حد ما مع التاريخ التقليدي (15). أما ليكسوس فلم تمدنا معطياتها الأثرية حتى الآن لشواهد سابقة للقرن 7 ق.م (16). هناك موطن مرسى مدخ يصل تاريخ تأسيسه إلى ماقبل القرن 6 ق.م (17)، وإيول (شرشال) أيضا تصل شواهدها إلى القرن 6 ق.م (18). أما تيبازة فيؤرخ أوائل قبورها إلى نهاية القرن 6 ق.م (19). بينما قونوقو (قبة سيدي ابراهيم) (20) وراشقون (21) فشواهدها لم تتعد القرن 5 ق.م.

إن من أهم مايميز هاته الفترة هو هذا التطور الكبير الذي يظهر على المنطقة من ناحية وعلى الفينيقيين والسكان من ناحية أخرى. فمع فترة من الزمن تتكون شخصية بشرية وحضارية جديدة دعاها الكتاب الكلاسيكيون الإغريق واللاتين بالبونية Punic. وعلى مايبدو فإن الظاهرة تمثلت بالإمتزاج السكاني بين الفينيقيين من ناحية والسكان

من ناحية أخرى، وفي تطور اللغة الفينقيية لتصل إلى اللغة البونية. وكذلك بظهور عادات وأفكار ومعتقدات متطورة تمثلت في آلهة جديدة هي امتزاج وتطور في الأفكار والمعتقدات الدينية الفينيقية السامية من جهة والليبية المحلية من جهة أخرى. نجد مثلها خاصة في عبادة آلهة الخصب المتمثلة في بعل حمون وتانيت. وفي ظهور شخصية حضارية جديدة سواء من الجانب المعماري أو الفني شملت المناطق البونية والنوميدية حتى أصبح من الصعب علينا التمييز بينهما والتعرف على ماهو بوني وماهو نوميدي.

النتائج والآثار المترتبة عن التواجد :

عدد من المسائل تطرح نفسها أمامنا حول هذه الحركة التوسعية سواء في بواعثها وأسبابها وطبيعتها وتطورها والعناصر البشرية المكونة لها أو في تأثيرها الحضاري والتاريخي على المنطقة. ثم في طبيعة العلاقات بين بعضهم البعض من جهة وبينهم وبين السكان من جهة أخرى.

1 ـ هناك هذه الظاهرة التي نجدها خلال هاته الفترة في حب هؤلاء الفينيقيين لروح المغامرة وولوج عباب الحوض الغربي للبحر المتوسط. هاته الفترة التي تميزت بدخول المنطقة في عصر الحديد. فكيف نشأت فيهم حب المغامرة وولوج عباب البحر نحو الغرب ؟

بالحقيقة أن التكوينة البشرية والثقافية الفينيقية ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بالتوافد البشري لشعوب البحر على المنطقة خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. وبما جاؤوا به معهم من ثقافات وتقنيات امتزجت بالكنعانية. هذا العامل يظهر أنه حول الثقافة الكنعانية لعصر البرونز وأدخلها في عصر الحديد. ومع هذا التحول يظهر استعمال المصطلح فينيقي. فهذا الاسم يظهر خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م مسجلا المميزات الجديدة وتبدل الصفات الكنعانية دون أن نعلم بتمام جوانبها من قبل مستعمليها. على كل علينا أن نعترف بأن الإثنية والثقافية الكنعانية تصدت لغزاة شعوب البحر واستطاعت أن تقاوم كل الصدمات والتبادلات الجديدة التي تعرضت لها، وأن تثبت وجودها. فقد بقي الكنعانيون يحسون بكنعانيتهم ويدعون بها دائما. ويظهر أن الإغريق وحدهم من استعمل اصطلاح الفينيقي.

أما المميزات التي ظهرت عليهم مع دخول عصر الحديد فتتمثل خاصة في ظهور الإمكانيات التقنية الحديثة والمتطورة في صناعة السفن. فمع التقدم في مجال التعدين استعملوا المسامير الحديدية مكان الترصيع بالخشب. كما توصلوا إلى صنع سفينة على أساس العمود الفقري الأوسط لها. هذا بالإضافة إلى استعمالهم للقار الذي يجعل السفينة صماء. وبهذا تمكنوا من صنع سفن أكثر صلابة وقوة وخفة تستطيع السفر بعيدا.

والمشكل المطروح هنا هو كيفية تعرف الفينيقيين على هاته المناطق البعيدة من اسبانيا أو شمال افريقيا. هل استفادوا من الخبرة المكينية في مجال التعرف على حوض المتوسط أم اكتشفوا المنطقة وحدهم ؟ من الصعب الاجابة على ذلك. ففي عمليات الكشف الأولى في عباب المتوسط الغربي وجدنا مقصدها تجاريا ومزودا بعدد كبير من المحطات التجارية. وبالنسبة لشمال أفريقيا فإن هذا الإكتشاف يضيع في الماضي البعيد. فهو يعود لفترة سابقة للقرن 12 ق.م فعلى ماذا اعتمدت عمليات الكشف ؟ هل هي رحلات محاطة بالحذر على طول الساحل ؟ كيف كانت الإتصالات الأولى مع السكان ؟ وكيف بدأ تأسيس المحطات ؟ تساؤلات لانعلم عنها حتى الآن شيئا.

2 ـ مسألة طبيعية التعامل الأولى مع السكان الوطنيين، كيف كانت ؟

طبعا من الطبيعي أن يكون هناك صعوبة في التعامل مع السكان في البداية. فلابد أنها كانت حذرة وربما بالطريقة الخرساء. على كل علينا أن لاننسى بأنه كان لايهمّ هؤلاء التجار الأوائل إلا التجارة والربح. وهذا مايكون قد منح طمأنينة السكان من جانبهم. ولهذا يمكن أن نظن بأن هذه الفترة الأولى ومع تواجد الحذر بين الطرفين، كانت خالية من عداوة السكان. وقد كانوا يتاجرون بمنتوجات الأرض والدواب والحيوانات والأخشاب والجلود والعاج مقابل المنتوجات الشرقية التي على الأغلب، كان هؤلاء السكان يقدرونها، مثل المنسوجات والفخار والأسلحة البرونزية والحديدية واللآلئ والتمائم المصنوعة من عجينة الزجاج.

3 ـ هناك مشكل عدم التوافق بين التواريخ الكلاسيكية والمعطيات الأثرية. حتى الآن لم نجد شواهد أثرية سابقة للقرن الثامن ق.م. فما معنى هذا ؟

هل يمكن الظن أنه خلال مدة طويلة من الفترة الأولى، والتي تقدر بحوالي ثلاثة أو أربعة قرون كانت فيها المراكز عبارة عن محطات بسيطة ذات صفة مؤقتة. أي يجب أن نتصورها في مبان خفيفة كانت تتجدد باستمرار من قبل هؤلاء المقيمين بشكل مؤقت والمكلفين بتدبير الأعمال التجارية واستمرارية الحياة في المحطات. على كل فمعلوماتنا حولها تبقى غير ثابتة وقليلة. ويصعب إعادة تصور تكوين نشاطها طالما أنها لاتعتمد على وثائق ثابتة وواضحة. ربما كانت تبنى مبانيها بمواد سهلة الزوال مما لم يبق من آثارها شيئا. وبأن هؤلاء الذين يشغلونها لم يقيموا بصفة دائمة. بل كانوا يعودون إلى مدنهم الأصلية بعد مدة من الزمن. وربما هذا يفسر غياب مقابر فينيقية سابقة للقرن 8 ق.م (22).

أما التأريخات المحددة من قبل الكتاب القدامى في تأسيس هاته المدن القديمة والتي تحدد أحيانا أقدمية واحدة على الأخرى بالسنوات. فإنه من الصعب علينا أن نأخذ بها وخاصة في فترة مازالت معلوماتنا حولها قليلة وغامضة. ويظهر لنا أنه من غير المفيد أن نناقش تواريخ تأسيسها وتحديد سنة بالذات عليها. أو حتى في أقدمية واحدة فيها على الأخرى، وخاصة أن المؤلفين القدامى الذين كتبوا حولها بعد مئات من السنين.ولهذا من الأفضل لنا أن نحاول التحديد بالتقرب وضمن فترة واسعة إلى حد ما

4 ـ يمكننا التساؤل عن أسباب وبواعث هذا التبدل في التواجد الفينيقي في الحوض الغربي للمتوسط من مركز مؤقت حيث الهدف منه الهجرة السكانية من المدن الفينيقية الشرقية نحو غربي المتوسط. فديودور الصقلي يحاول وضع بعض التفسيرات إذ يقول بأن : "هاته التجارة الممارسة من قبلهم قد زادت من قوتهم وسمحت لهم بإرساء عدد من المستوطنات سواء في صقلية أو الجزر المجاورة أو في ليبيا وفي سردينيا وإيبيريا" (23). نص ديودور يترك لنا الظن بوجود اشراف أو وصاية للدولة عليه. وبأنه كان نتيجة تجارة قد مورست من قبلهم منذ مدة طويلة وكانت مربحة إلى حد كبير بحيث زادت من قوتهم وأعطتهم الكثير من الإمكانيات المادية.

سالوستيوس Sallustius أيضا يوضح لنا بعض الجوانب من هذا الإستعمار إذ يقول : "الفينيقيون، بعضهم من أجل إنقاص عدد السكان الذين يتزايدون في بلادهم والآخر يتمثل في حب السلطة قد جاؤوا بأناس من أفراد الشعب وآخرون من خليط الغرباء وأسسوا على ساحل البحر هيبون وهادرومت ولبتس ومدنا أخرى" (24). نرى

هنا ملامح الهجرة أو الإستيطان الجماعي. ونلاحظ تعليله سواء في الضغط السكاني أو في حب السلطة. وكذلك نلحظ قضية الخليط السكاني ومعناها أنّ العناصر التي جاءت ليست كلها فينيقية صافية. على كل علينا ألاننسى بأن هاته الفترة، وهي مابين القرن 9 ق.م ونهاية القرن 7 ق.م كانت عصر قوة الإمبراطورية الآشورية التي كان من سياستها غزو المنطقة وشن الحروب عليها ونهبها بشكل متكرر. مما خلق جوا من الخوف وعدم الطمأنينة في المنطقة، ربما كان هذا العامل الأكبر في هرب السكان نحو أماكن آمنة في الغرب. هذا بالإضافة إلى ظهور المنافسة الإغريقية في المنطقة الغربية ربما كان قد دفعهم أيضا إلى الإستيطان للدفاع عن المصالح المكتسبة في المنطقة.

5 ـ كان من أهم نتائج هذه الهجرة هو قيام مدينة قرطاجة ونموها بشكل ملحوظ. فالروايات تتكلم عن ولادة هاته المدينة بسبب هروب أليسا زوجة أستراباس أو أشرباس (تحوير لاتيني لزكر بعل)، فهل هاته القصة صحيحة ؟ طبعا من الصعب الإجابة على ذلك. على كل علينا ألا ننسى وجود هاته الهجرة التي ربما كانت لسبب سياسي أو إقتصادي أو اجتماعي من جهة، وكذلك استمرار العلاقات بينها وبين المدينة الأم حتى وقت متأخر. وأن نلاحظ بأن هاته المدينة قد استطاعت بسبب موقعها الحساس وقوتها المتنامية أن تنظم وتدافع وتحافظ على المصالح الفينيقية في غربي المتوسط وأن تحتكر مجاله لعدد من القرون.

أما بالنسبة لتأسيسها فكثير من الروايات حددت سنة تأسيسها بحوالي 814 ق.م. والشواهد الأثرية التي وجدت حتى الآن يمكن أن ترجع إلى فترة سابقة للنصف الأول من القرن 8 ق.م. س(25)، ولهذا من الأفضل لنا أن نضع ولادة هاته المدينة فيما بين نهاية القرن 9 ق.م. ومنتصف القرن 8 ق.م.

6 ـ هناك مسألة وضعية ساحل شمال إفريقيا لدى وصول هؤلاء الفينيقيين. فقد وجدنا هذا العدد الكبير من المحطات والمستوطنات التي انتشرت على طول السواحل. فهل تكوينها كله كان فينيقيا أم أن البعض منها ليبيا. وهل منها ماهو سابق لمجيئهم ؟ تساؤلات يصعب الإجابة عليها الآن.

إنه لمن الصعب تصور وجود ظاهرة المدينة في شمال إفريقيا قبل وصول الفينيقيين فالشواهد الأثرية لاتعطي أي أثر للمدينة سابق للقرن 8 ق.م حتى الآن. فمن تحليل

أسماء هاته المحطات والمستوطنات وجدنا أن فيها عددا هاما ذو تركيبة لغوية فينيقية أو بونية وهي التي تبدأ بمقطع "روس" الذي يعني رأسا بحريا، أو "إي" الذي يعني جزيرة شاطئية. فهل يكفي الإسم وحده لإقرار كون مستوطن بوني أو ليبي ؟ وهل العدد السكاني للفنيقيين كان كافيا لشغل هاته المستوطنات ؟

إن مايظهر لنا بأن التكوين السكاني لهاته المستوطنات الأولى كان مزيجا من الفينيقيين والليبيين. فيجب ألا ننسى أن استمرارية هاته المستوطنات كان قائما على التعامل التجاري والمبادلة في السلع وفي التعايش السلمي. هذا والإسم وحده لايكفي للتعريف بالهوية. فلدينا الكثير من الشواهد على هذا الإمتزاج السكاني والحضاري الذي نجده في مظاهر الحضارتين البونية والنوميدية اعتبارا من القرن 5 ق.م فقد اتخذ الليبيون الكثير من مظاهرها سواء في اللغة أو في الفن أو الدين. بحيث أصبح من الصعب علينا أحيانا التفريق بين ماهو بوني أو نوميدي أو موريطاني.

فنجدها مثلا في نماذج الأضرحة الملكية الجنائزية التي تبقت لنا مثل ضريح المدغاسن والضريح الملكي الموريطاني (المدعو بقبر الرومية) وضريح سيقا والخروب والدقة وصبراطة. فهاته الأضرحة تقدم لنا مزيجا فنيا هاما في العمارة والزخرفة، أصول عناصرها فينيقية شرقية وليبية محلية وإغريقية (26).

وكذلك في الأنصاب النذرية وما قدمته من مشاهد تصويرية ومن رموز دينية مثل رمز تانيت والهلال والقرص الشمسي والرموز المستعملة في الطقوس الدينية أو أطر واجهات معمارية دينية أو زخارف تزيينية. فالأنصاب التي نجدها في المدن البونية مثل قرطاجة وأوتيكا مشابهة لتلك الأنصاب التي نجدها في المدن النوميدية مثل كيرتا (قسنطينة) وكالاما (قالمة) (27) وغيرها.

وفي الأسماء فنجد الكثير منها مايحمل الصفة الدينية وقد اتخذت من جانب البونيين والليبيين معا مثل "عبد ملكارت (28)، عبد أشمون (29)، أزربعل (30)، عبد عشتارت (31)، بد ملكارت (32)، بد عشتارت (33).

وكذلك في استعمال الجميع للغة البونية فالجميع استخدم اللغة البونية سواء البونيين أو النوميديين أو الموريطانيين في أقصى الغرب حتى وبشكل رسمي وخاصة منذ القرن الثالث ق.م (34).

والغريب أن مظاهر هاته الحضارة نجدها حتى في أقصى المناطق الغربية في موريطانيا وفي المناطق الداخلية كما هو الحال في مدينة بعيدة عن الساحل مثل فوليوبيليس Volupilis (وليلي)، التي نجد فيها استعمال اللغة البونية في فترة مبكرة.

إننا لانعرف شيئا عن طبيعة العلاقات التي تربط هاته المستوطنات الفينيقية ـ البونية ببعضها البعض من ناحية وبقرطاجة من ناحية أخرى، وخاصة بعد ضعف المدن الفينيقة الشرقية حتى وفقدها لاستقلالها. فيظهر أنه على هاته المدن أن تنظم أمورها وتعالج استمرارية وجودها وتحمي نفسها بنفسها. وندما تعذر على البعض منها ذلك لجأت إلى مدينة قرطاجة، هاته المدينة التي كانت تنمو وتقوى بشكل ملحوظ حتى أصبحت امبراطورية حقيقية. وعلى مايظهر أنها لم تكن امبراطورية ذات قوة مركزية، وإنما هي شبه فدرالية من الدول ـ المدن. على كل حال فإن المصادر لاتذكر من هاته المدن سوى أوتيكا، كمدينة بقيت محافظة على وضعيتها كحليفة لقرطاجة مع التبعية لها من الناحية الفعلية. وكان محقا س.قزال S.Gsell فيما يراه إذ يقول بأنه : " لدينا أسباب تجعلنا نظن بأن أوتيكا كانت ماتزال محافظة على استقلالها الكامل في نهاية القرن 6 ق.م وبعدها دخلت مع قرطاجة في تحالف يضعها بالتساوي معها ولكن بشكل صعب، فمن الناحية الفعلية كانت تابعة لها" (35). فإننا نجد اسم أوتيكا مذكورا في المعاهدات التي عقدتها قرطاجة خلال منتصف ق. 4 ق.م. (وهي معاهدة مع روما عام 348 ق.م)(36)، ونهاية القرن 3 ق.م (وهي معاهدة مع فيليب المقدوني عام 215 ق.م) (37). على كل يظهر أن طبيعة العلاقات القائمة بين قرطاجة والمستوطنات الأخرى كانت على أساس قيام قرطاجة بالسهر على أمنهم وضمان سلامة أراضيهم، وبالمقابل على المستوطنات أن تعترف لها بحق القرار في بعض الشؤون السياسية والإقتصادية. هذا مايمكن أن نستنتجه من المعاهدات الممضية مع الدول الأجنبية وخاصة تلك التي عقدت مع روما.

الهوامش

1 ـ يظهر أن البونيين في المغرب بقيوا يدعون أنفسهم بالكنعانيين حتى وقت متأخر. هذا مانجد ذكره عند القديس أوغستينوس، الذي عاش خلال بداية القرن 5 ق.م. في هيبون (عنابة)، إذ يقول : "لو تسأل فلاحينا، من هم، يجيبون بلهجة بونية كناني، طبعا يجب سماع كنعانيون، حيث أن حرفا سقط منها مع اللهجة".

: Saint AUGUSTIN, 75, Epistola ad Romanos inchoata expositio, 13
"Unde interrogati rustici nostri quid sint, punice respondentes, Chanani, corrupta alind respondent quam. scilicer, sicut in talibus solet, una littera, quid Chanan aei ?"

وفي رسائل أخرى يذكر عدم فهم السكان للاتينية ولهذا كانوا يحتاجون لإفهامهم المسيحية إلى مترجم بالبونية :

Id. 75, Epistola, LXVI, 2 ; 29, Feuille 9.

بروكوبيوس الذي عاش خلال القرن 6 م. يؤكد أيضا عند مجيء البيزنطيين للمنطقة، بأن السكان القاطنين خارج المدينة (أي الفلاحين)، يتكلمون البونية. أنظر :

PROCOPE, 29, Feuille 17.

2 ـ نشاهد الكلمة phoenix لأول مرة عند هوميروس وتعني الأرجوان.

3 ـ لقد أعطانا الكتاب المقدس وصفا هاما لها ولغناها فقد اعتبرها أغنى مدينة في العالم : (الكتاب المقدس، حزقيال، 27).

4 - STRABON,I, 3,2 ; III, 2, 14.

5 ـ الكتاب المقدس، أخبار الأيام الثاني، 9، 21.

6 - GSELL, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t.I, p. 359.

7 - PLINE L'ANCIEN, Histoire naturelle, XIX, 63.

8 ـ يروي لنا بلين الأكبر وجود عارضات من خشب الأرز النوميدي كانت قد وضعت في معبد أبولون في أوتيكا قبل 1178 سنة من عهده. ونحن نعلم أن بلين كان قد قدم تاريخه الطبيعي إلى تيتوس عام 77 م. معناها أن أوتيكا كانت موجودة عام 1101 ق.م.

PLINE L'ANCIEN, XVI, 216.

أنظر أيضا فليوس باتركلوس Vellius Paterculus الذي يضع تأسيسها بعدد من السنين بعد قادس :

Vellius PATERCULUS, I, 2

9 - HERODOT, IV, 196:

10 - Geographi graeci minores, Edition Müller, Paris, 1855, t.I, p 1- 14

11 ـ عليسا أو (عليشات) حسب جستين Justin وفيليوس باتركولوس مثلا :

JUSTIN, XVIII, 4,6 ; Vellius PATERCULUS, I, p. 1 14.

تيمايوس Timaios يذكر لنا أنها كانت تدعى عليسا في وطنها الأم، وبعدها في وقت متأخر أصبحت تدعى ديدون من قبل السكان الأفارقة :

Fragmenta Historicorum Graecorum, éd. Th. Müler, Paris, 1874, t.I, P 179 (Timée, Fragment, 23).

أنظر أيضا :

T. GEFFCKEN, Timaios' Géographie des Westens, Berlin, 1892, p.163

أما ديدون فنجدها خاصة عند ماندر وجوزيفوس وفيرجيل. على كل فقد ناقش هاته المسألة بشكل تفصيلي وجيد بيير سنتاس :

P.CINTAS, Manuel d'archéologie punique, Paris, 1970, t.I, p. 11 16.

كما نجد أن القرطاجيين مثلا كانوا قد بعثوا بكمية كبيرة من الفضة لمعبد ملكارت بصور، وذلك عند تعرضهم لتهديد آغاثوكل خلال غزوه لأفريقيا عام 162 ق.م.

POLYBIUS, XXXI, 12.

كما نجد أيضا على الأنصاب النذرية نساء مقدمات للنذور يدعين إليشات، أنظر:

C.I.S., I. 228, 256, 279, 385, 481, 600 ...

هذا وقد حول الإغريق هذا الإسم إلى إليشا .....E.

12 - DIODORE, XX, 14.

13 - P.CINTAS, Fouilles puniques à Tipasa, Alger, 1949, p. 8 - 13.

14 - P.CINTAS, Manuel d'archéologie punique, t.I, p. 259 et suiv ; F.DECRET, M.FANTAR, L'Afrique du Nord dans l'Antiquité des origines au Ve. siècle, Paris, 1981, p. 51.

15 - P.CINTAS, Ceramique punique, Paris, 1950, p. 460 (Tab. I).; F.RAKOB, Les fouilles allemandes de Carthage. L'état des niveaux puniques, Cahiers des études anciennes, t.XIX, 1986, p. 8, 17 18.

16 - P.CINTAS, Manuel ..., t.I, pp. 246 - 248 ; M. TARRADELL, Lixus, Intito Muley El-Hassan, Tetouan, 1959, p. 30.

17 - G. VUILLEMOT, Fouilles puniques à Marsa Madakh, Libyca (a/é) t.II, 1954, p. 339 - 342.

18 ـ فقد وجد فيها تحت أرضية الساحة العامة للمدينة المتواجدة خلال العصر الروماني مصباح من الطراز البوني يرجع تاريخه إلى القرن 6 ق.م.، أنظر :

N. BENSEDDIK, T. POTTER, Fouilles du forum de Cherchel (1977-1981), t.II p 372.

19 - P.CINTAS, Fouilles puniques à Tipasa, p 51.

20 ـ حيث وجد فيها خزف إغريقي مستورد يؤرخ للقرن 5 ق.م. أنظر :

F.VILLARD, Vases antiques du Ve s. av. J - C à Gouraya, Libyca (a/é), t. VII, 1959 p.7 - 11.

21 - F.VUILLEMOT, La nécropole punique du phare dans l'ile Rachgoun (Oran), Libyca (a/é), t.III, 1955, p 38 - 45.

22 - F.DECRET, M.FANTAR, op.cit., p. 50.

23 - DIODORE, V, 35.

24 ـ أنظر كتابه حرب يوغرطة :

SALLUSTE, Bellum Jugurthinum, XIX, 1 - 2.

25 - F.RAKOB, op.cit p 8 - 17 18.

26 ـ لو ألقينا نظرة على الأضرحة النوميدية وخاصة التي تحمل الشخصية المحلية في شكلها مثل ضريحي المدغاسن والملكي الموريطاني اللذان يحملان شخصية قبور البازينا في شكليهما، نجد أنّ الهيئة التزيينية التي يحملانها، فيها الكثير من أصولها مايعود إلى العمارة والفنون البونية سواء في طرز التيجان أو التوريقات أو الحنايا المدعوة بالمصرية، أنظر مثلا بالنسبة للضريح الملكي الموريطاني :

3 (1964), pp iP.SALAMA, Le Tombeau Royal Maurétanien, el djezaïr,N 20 - 33.

وبالنسبة للمدغاسن :

G.CAMPS, Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris, 1961, pp. 199 - 201.

أما بالنسبة للأضرحة الأخرى (سيقا والدقة والخروب) فهي متأثرة بالعمارة البونية سواء في الشكل أو الزينة أو الطرز المعمارية، أنظر مثلا حول الخروب :

M.BOUCHENAKI, Un mausolée libyco-punique, Le mausolée du Khroubs, et djezaïr, N° 15, pp. 42 - 47.

فريدريك راكوب حاول أن يقوم بدراسة مقارنة لكل هاته الاضرحة، أنظر :

F. RAKOB, Numidische Kônigsarchitektur in Nordafrica, dans (Die Numidier, Bon, 1977), pp. 119 - 171 ; id., Architecture royale numide, dans " Architecture et société de l'archaîsme grec à la fin de la république romaine ", (Collection de l'Ecole française de Rome, N° 66), Paris et Rome, 1983, pp. 325-348.

كذلك أ.ليزين حاول أن يظهر هاته التأثيرات في دراسته :

A. LEZINE, Architecture punique, p.66-70; 98-99.

بالنسبة لضريح صبراطة البوني أنظر :

A. DIVITA, Les phéniciens de l'occident d'aprés les découvertes archéologiques de Tripolitaine, dans (A.W. WORD, the Role of the Phoeichians in the interaction of the Mediteranean civilisation, Beirut, 1968), pp. 77 - 98 ; Id. Influences grecques et traditions orientales dans l'art punique de Tripolitaine, M.E.F.R., t. LXXX, 1968, pp 7 84.

28 C.I.S, I, 181, 186, 199 -203, 206, 215, 283 ; A. BERTHIER, A.R. CHARLIER, op.cit, N°S,3,9,29,33,43,45,56.

29 - C.I.S, I, 187, 192, 196, 233, 241, 283 ; A. BERTHIER, A.R. CHARLIER, n°S 34, 35, 66, 68, 91...

30 - C.I.S., I, 189, 200 - 203, 205 207, 214 ...; A. BERTHIER, A.R CHARLIER, N°S 34, 35, 66,68,91...

31 C.I.S, I, 205 ; A BERTHIER, A.R. CHARLIER, op.cit, n1

32 - C.I.S, I, 181, 199, 201, 208, 209, 220, 245 ; A BERTHIER, A.R. CHARLIER, op. cit, 97, 175, 181...

33 C.I.S., I, 185,187,190,205,207,215 ; A. BERTHIER, A.R. CHARLIER, op. cit, N° 8, 13,56,68,96,100,107.

34 ـ نلاحظ أنّ الملوك النوميديين والموريطانيين قد استعملوا اللغة البونية حتى على العملة التي سكوها منذ عهد صيفاكس ومسينيسا حتى يوبا الأول أنظر مثلا :

J.MAZARD, Corpvs Nvmidarvm Nvmidiae Mavretaniaeqve,

بالنسبة لصيفاكس القطع رقم 1 ـ 12، فرمينا القطع رقم 13 ـ 16، مسينيسا الأرقام 17 ـ 41، يوغرطة الأرقام 73 ـ 75، هييمبسال الأرقام 78 ـ 83، يوبا الأول الأرقام 84 ـ 93، وبالنسبة لبوخس القطع وقم 107 ـ 117 ...

35 S. GSELL, op.cit, t.I, p. 459.

36 - POLYBIUS, III, 24, 1 et 3.

37 - POLYBIUS, VII, 9, 5 et 7.